

قسم التاريخ

الفرقة الرابعة

حضارة الشرق الأدنى القديم وآثارها

د. محمد رشاد المقدم

. مظاهر الحضارة العبرانية.

١. نظم الحكم:

١.١ النظم المالية:

ترتب على قيام الملكية الإسرائيلية وما تبعها من حكومة مركزية أن تضاعفت حاجة الملوك إلى المال لكثرة النفقات ومواجهة الأعباء الجديدة التي اضطلعوا بها، ولذلك اتجهت الحكومة المركزية منذ عهد سيدنا سليمان عليه السلام إلى تصنيف الضرائب وتحديد طريقة جبايتها، ولتحقيق ذلك قسم سيدنا سليمان البلاد إلى اثني عشر قسمًا وفرض على كل قسم أن يتكفل بنفقات البلاط شهرًا. وكان خضوع إسرائيل للنفوذ المصري والآشوري سببًا في مضاعفة الضرائب على الأهالي، بسبب الجزية المفروضة من قبل المصريين أو الآشوريين.

٢.١ البلاط:

كان البلاط الملكي يتكون من المذكر (كاتم أسرار الدولة)، وكاتب الدولة، ورئيس السخرة، ورئيس الجلادين، وصاحب الملك، ومدير البيت، ورجال التشريف، وموظفو الشئون المالية وموظفو الحريم، وموظفو الحاشية، إلى جانب حكام المحافظات الذين كانوا يمثلون الملك في محافظتهم، ويتولون جباية الضرائب التي يحتاجها الملك. وكان المعبد تابعًا لإشراف القصر الملكي بشكل مباشر، ومن الكهنة وكبار الموظفين تشكلت فئة أرسقراطية جديدة احتكرت كل الحقوق ووجهت الدولة لمصالحها الذاتية خصوصًا في أوقات الضعف.

٣.١ القضاء.

كان القضاء قبل قيام الملكية منوطاً بشيوخ القبائل، ثم أصبح في العصر الملكي بأيدي الكهنة، كما استدعت الحاجة في هذا العصر إلى ضرورة تسجيل الأحكام والقضايا بعد أن كانت شفوية في الفترة السابقة لقيام الملكية. وكانت الشهادة الركن الأساسي في الإجراءات القضائية، وبلغ من مسئولية الشهادة لدرجة التي جعلت القوم يفرضون أشد العقوبات على شهادة الزور. وكان الكهنة يستخدمون النبؤات والأزلام للكشف عن الجرائم، وكانت العقوبة الشائعة هي الرجم أو الشنق أو الإحراق.

وقد تمخض عن قيام الملكية تهذيب القانون القبلي البدائي، فبدأوا يخففون من حدة الثأر وأصبح العقاب فردياً بعد أن كان جماعياً، كما بدأوا يميزون بين القتل العمد وغير العمد، ونمت النواحي الإنسانية في القانون لاسيما في عهد داود، وصار القانون قومياً، بحيث لا يطبق إلا على الإسرائيليين وحدهم، وأخرج غير الإسرائيليين من نطاقه.

٤.١ الجيش.

تشير المصادر إلى أن العبرانيين لم يعرفوا الجيش كهيئة دائمة إلا في العصر الملكي، فقد شرع طالوت في إنشاء جيش نظامي انضم إليه كل إسرائيلي لائق للخدمة العسكرية، وربما من أجل هذا السبب نرى سيدنا داود فيما بعد يكلف ضباط جيشه بعمل تعداد للمجتمع الإسرائيلي. وأصبح الجيش الإسرائيلي في عهد داود يتكون من عنصرين أساسيين هما: السبا: أي أفراد الحرس الملكي، والجبوريم، وهي القوات الدائمة، وقد تكونت نواتها الأولى من ستمائة مقاتل، كانوا قد تجمعوا من قبل حول داود عندما نفاه شاول، وكان يطلق عليهم "رجال داود الأقوياء"، ولم يكونوا جميعاً من

الإسرائيليين، بل كان معظمهم في الحقيقة من شعوب أجنبية، وقد أحرز بهم داود انتصارات مهمة، كانتصاره الكبير على الفلسطينيين و"احتلال" دولة المدينة أورشليم".

ثم إزداد تعداد الجيش في عهد سيدنا سليمان بشكل ملحوظ، وأصبح أفرادهم يحملون أحسن الأسلحة المعروفة وقتذاك، والتي يمكن تصنيفها إلى نوعين: النوع الأول عبارة عن الأسلحة الخفيفة كالـمقلع والقوس والمجن الصغير الذي اشتهر باستخدامه البنيامينيون، أما النوع الثاني: فقد تضمن الأسلحة الثقيلة كالمجن الكبير والدرع والخوذة، وربما كانت هذه الأنواع من الأسلحة القتالية للملوك وعظماء القوم. وأما العجلات الحربية فقد أخذها الإسرائيليون عن الحيثيين عن طريق الفينيقيين، وفي كل عربة ثلاثة جنود، السائس والمحارب وحامل المجن، الذي يحمي الإثنين.

٢. العقائد.

على الرغم من أن العبرانيين كانت لهم ديانة راقية قائمة على توحيد الخالق، فإن إختلاطهم بالفينيقيين قد نجم عنه تأثرهم بعقائدهم وطقوسهم الدينية، فتعلم العبرانيون منهم عبادة مظاهر الطبيعة وبعض الحيوانات وتقديم القرابين للآلهة، بل هناك من يذهب إلى القول بأن فكرة العبرانيين عن الحياة والعالم الآخر متأثرة بالأفكار الدينية الفينيقية، فمثلاً وليس حصراً كان القوم يضعون الميت في المقبرة ومعه الأشياء التي كان يستعملها في حياته اليومية، وكانت هذه الأشياء سواء أكانت مصوغات أو منسوجات كانت متأثرة بالفن الفينيقي الكنعاني. لكن هذا في الوقت ذاته لا يمنعنا من بيان مدى الدور الذي لعبته اليهودية في تطور ديانة التوحيد، حيث ساهمت بشكل كبير في الثورة على الفكر الديني الطبيعي، أي المرتبط بالطبيعة والمستمد لآرائه منها، والإعتماد على العقل في سبيل

الوصول إلى الحقائق الدينية، وتتجلى أهم التغييرات الدينية التي عبرت عن مرحلة الانتقال من الفكر الديني الطبيعي إلى الفكر الديني العقلي المتمثل في عقيدة التوحيد فيما يلي:

أولاً: أصبح الإله في الفكر الديني الجديد فكرة نظرية مجردة لا يمكن تصويرها أو تجسيدها بالشكل الذي وردت بها في الديانات القديمة، والمتأثر بتشبيه الإله بعناصر طبيعية مخلوقة، حيث كانوا يعتقدون أن الآلهة ترتبط بعلاقات أسرية فيما بينها مثل البشر، وأصبح الإله منزهاً عن الطبيعة والخلق، وانتهت الروابط الدموية العصبية؛ لأن الإله الجديد ليس إلهاً لعشيرة بعينها، بل هو إله لكل الخلق، وإن تعرضت الديانة اليهودية لنكسة فيما بعد، فعادت من جديد هذه الرابطة العصبية بين الإله والشعب.

ثانياً: لم تعد فكرة الخلق نتيجة طبيعية لعملية التقاء جنسي بين الآلهة، كما حدث مع آلهة العالم القديم، وإنما أصبحت عملية الخلق في التفكير الديني الجديد عملية تعود إلى الإرادة الإلهية، فالخلقة من صنع الله صاحب المشيئة، كما إن الخلق أصبح خلقاً من العدم.

ثالثاً: انتهت فكرة الإله الحي الميت أي الإله الذي يموت ليبعث من جديد، وهي فكرة مرتبطة بالطبيعة وما تتعرض له من جفاف وإزدهار في الديانات الوضعية القديمة، فمثلاً في الديانة الآشورية والبابلية نجد الإله تموز الذي يموت ويولد من جديد في كل عام، فابنتهاء تقديس الطبيعة انتهت هذه الظاهرة وجاءت الديانة اليهودية بفكرة الإله الحي القيوم الذي لا يموت لأنه واهب الحياة والموت.

رابعًا: انتهت فكرة الصراع بين الآلهة وتأثيرها السلبي على المجتمعات البشرية القديمة، وقام النظام الجديد على فكرة الإله الواحد العادل، وبدأت الحياة الدينية تأخذ وجهة جديدة هدفها الإتجاه بالدين إلى ما يسمى بالتوحيد الأخلاقي القائم على تنظيم علاقات الأفراد على أسس من العدالة.

وعلى ذلك، فقد كان الدين هو المظهر الوحيد الذي أسهم به العبرانيون في مضمار الحضارة، ومع هذا يمكن أن يدرس العهد القديم على أنه مؤلف أدبي ويمكن مقارنة الشريعة الموسوية بقانون حمورابي في كثير من المواد غير أنها تمتاز بما فيها من عناصر أخلاقية لم يرد لها مثيل في الشرائع السابقة.

وكان كهنتهم يقومون بالطقوس الدينية ويعدون أنفسهم وسطاء بين الإنسان ومعبوده، ومن هؤلاء من امتازوا بالحكمة وبلغوا مرتبة عالية في التفكير وقد عرفوا باسم الأنبياء الذين كانوا يهدفون إلى رقي الفرد وسلامة المجتمع عن طريق ربط الدين بالأخلاق، كما نادوا بعبادة إله واحد.

أما عن التوراة فنجد أنها قد مرت بمراحل متعددة، فبدأت بالرواية التي يتناقلها الخلف عن السلف، ثم انتقلت إلى مرحلة التدوين وفيها جمعت من مدونات تاريخية قبل السبي وبعده، وقد تعرضت للتنقيح وحذفت منها بعض الأمور، كما ضاعت أثناء الجمع بعض الأسفار التي اكتفى بالإشارة إليها أثناء النسخ.

وبالإضافة إلى التوراة وجدت مجموعة من القواعد والأحكام والوصايا والتعاليم عرفت باسم التلمود، والذي ينقسم في الواقع إلى تلمودين: أورشليمي وبابلي، فالتلمود الأورشليمي هو ما وضعه احبار أورشليم ويحتوي على ٣٩ بحثًا بالعبرية، وقد كتب ابتداء من

القرن الثاني إلى القرن الرابع الميلادي. أما التلمود البابلي فقد بدئ به في بغداد في أواخر القرن الخامس الميلادي، ويتضمن ٣٦ بحثًا بالآرامية إلى جانب بعض الشروح العبرانية، التي تشتمل على الأحكام الدينية المكملّة لشريعة سيدنا موسى عليه السلام، ويعد هذا التلمود هو المتداول حاليًا بين اليهود.

٣. الفن.

تأثر الفن الإسرائيلي بالفن الكنعاني تأثرًا كبيرًا، فقد سبق أن ذكرنا أن معبد سيدنا سليمان وهيكل اليهود بناه مهندسون من مدينة صور، فجاء تقليدًا للمعبد الكنعاني كما جاءت زخارفه متأثرة بالنظم الكنعانية، وبالإضافة إلى ذلك كان القصر الملكي في أورشليم متأثرًا في هندسته وفي زخرفته بالمباني الكنعانية المعاصرة.

٤. اللغة والكتابة.

لم يقتبس الإسرائيليون من الفينيقيين لغتهم فحسب، إنما استعملوا في تدوين كتاباتهم كذلك الخط الفينيقي المتداول في بلاد كنعان، يستدل على ذلك من المخطوطات العبرانية التي عثر عليها في منطقة الخليل وغيرها، والتي يرجع تاريخها إلى حوالي ٧٠٠ قبل الميلاد. ثم حدث أن تطور القلم العبري أثناء فترة السبي البابلي، ودونت نصوص العهد القديم باللغة العبرية المعروفة بآرامية التوراة؛ وذلك لأن الخط المستخدم فيها كان مأخوذًا من الخط الآرامي المشكل من اثنين وعشرين حرفًا، وهو الخط الآشوري المربع الذي يعرف بالقلم العبري المربع، وهو المتداول إلى اليوم في الكتابة العبرية الحديثة.

٥. الموسيقى.

كانت طقوس المعبد في حاجة إلى الموسيقى، لذلك نجد أن المغنين والموسيقيين معظمهم من الكنعانيين، وحينما وضع داود وسليمان أصول الموسيقى الإسرائيلية الدينية نجدها قد تأثرت بالموسيقى الكنعانية.

وكان من أهم الآلات الموسيقية عند اليهود القيثارة والدف وآلات النفخ كالבوق والأرغول والمزمار. ومثلما تطورت الموسيقى تطور الغناء ومن أقدم الأغاني عند اليهود أغنية ديبورة التي تسجل انتصار اليهود على الكنعانيين، كذلك كان هناك أغان خاصة بالحج تنشد في الطريق إلى المعبد، كما نظمت شعراً على نمط الشعر الكنعاني حتى إن كتاب العهد القديم كله يكاد أن يكون منظومة شعرية كبرى.